

العشرينات والعشرينيات

للدكتور ناصر الدين الأسد

-1-

تجري الألسنة والأقلام من حين إلى حين بتعبيرات وألفاظ لا تلبث أن تشيع من خلال الصحف والإذاعات والتأليف شيوعاً يستوقف الحريصين على سلامة اللغة ونقائها، فإذا هم يُطليون البحث فيها والطواف حولها ليتحققوا من صحتها، ومن أنها جارية مجرى كلام العرب في الاستعمال، أو في القياس، أو فيهما معاً. وما أكثر ما صدرَ من كتب في القديم وفي الحديث، بناها مؤلفوها على تنبُّع هذه التعبيرات والألفاظ، وبيان ما فيها من خطأ، والتنبيه على الصحيح الذي يجب استعماله مكانها.

وهذا بابٌ من العلم ظاهره اليسرُ والإغراء بالدخول منه، وباطنه محفوف بالمزالق والمكاره، إذ لا بُدَّ للمتوغلِّ فيه من أن يكون محيطاً بكلام العرب أو بأكثره، بصيراً بأساليبهم، عالماً بشعرهم ونثرهم على مر العصور وتعدُّد البيئات، حافظاً، ذاكرةً، قادراً على الاستشهاد وضرب المثل والإدلاء بالحجّة. وأين من يدّعي لنفسه كلَّ هذا أو بعضه؟

ومن أجل ذلك كثرت الكتب التي ألفها أصحابها للردِّ على مؤلفي الكتب السابقة، وبيان ما وقعوا فيه من تسرُّع إلى التخطئة وتوضيح وجه الصواب فيما ظنّوه وهماً أو مخالفاً لكلام العرب.

وكلا الفريقين من العلماء لا يَنْقُصُ من علم أحدهم أنه أخطأ في اجتهاده، ولا يعيبه أنه غاب عنه أمرٌ عرفه غيره؛ ولهم جميعاً الأجر والثواب إن شاء الله.

-141-

وما فَنِتُّ أطلب هذا الضرب من الثواب، وأرجو أجر الاجتهاد، مُلقياً بدلوي بين الدلاء في ألفاظٍ شاعت ورأى غيري أنها خطأ، وكنتُ من الذين رأوا صوابها، ونَشَرْتُ بعض ذلك في مجلّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة⁽¹⁾.

وأحبُّ الآن أن أستزيد من الخير، فأواصل في مجلة مجمعنا الناشئ ما كنتُ بدأتُه في مجلّة مجمعنا العريق.

-2-

وكان الذي قادني إلى هذا الحديث مقالٌ نَشَرْتُهُ صحيفةً يوميةً⁽²⁾، في مصرنا العربية، الحبيبة لقلب كلِّ عربي، كَتَبَهُ عالِمٌ جليل، عضوٌ في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، معروف بالروية والتثبت، طالماً أنسنا بحديثه وأفدنا منه. وتناول في مقاله كلمتين نقتصر هنا على الثانية من منهما، ونبدأ بنقل ما كَتَبَهُ عنها بحروفه، قال:

"وتمت كلمة ثانية يستعملها الناس في عصرنا على أنا صواب، وهي عريقة في الخطأ، وهي كلمة: العشرينات والثلاثينات والأربعينات، وما إلى ذلك من سائر العقود. ووجهُ الخطأ في هذا الاستعمال أن هذه الكلمات جموعٌ لعشرينية وثلاثينية وأربعينية، وليست هذه الكلمات في متن اللغة، إذ كانت لا معنى لها.

والصواب في الاستعمال أن يقول القائل: هذا حَدَثٌ في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات، بمعنى أنه حدث في السنوات المنسوبة إلى العشرين والثلاثين والأربعين وما إليها. فالكلمة يجب أن تكون مستعملةً على طريق ياء النسبة، وحذفُ الياء هذه خطأ، عريق في باب الخطأ الذي يكاد يهبط إلى منزلة الخطيئة، لأن الفصحى من شعائر الإسلام، ولأن الحرص على العربية حرص على لغة القرآن ..".

(1) الأجزاء 25 و 27 و 29 و 34.

(2) جريدة الأخبار، 1977/9/21، ص5، بعنوان "الصواب المظلوم".

وَلِحِرْصِنَا جَمِيعاً عَلَى الْعَرَبِيَّةِ، لُغَةِ الْقُرْآنِ، نَسْتَأْذُنُ الْأَسْتَاذَ الْجَلِيلَ فِي أَنْ نَأْخُذَ بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا، وَنَسْتَأْنِفُ مَجَالِسَ كَانَتْ لَنَا، عَرَفْنَا فِيهَا مُجِيباً لِلْحَقِيقَةِ وَالْحَقِّ، حَقِيقاً عَنْهُمَا، لَا يَضِيقُ صَدْرَهُ بَرْدٌ أَوْ سَوْأَلٌ أَوْ تَصْحِيحٌ.

وَلَقَدْ غَابَ عَنِّي فَهْمٌ مَا قَصِدُ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ إِنَّ الْعَشْرِينَاتِ، بِغَيْرِ يَاءِ النِّسْبَةِ، "عَرِيقَةٌ فِي الْخَطَأِ" وَأَنَّ "حَذْفَ الْيَاءِ هَذِهِ خَطَأٌ عَرِيقٌ فِي بَابِ الْخَطَأِ"؛ فَلَمْ أَفْهَمْ مَعْنَى "الْعَرَاقَةُ" هُنَا! إِنَّ الَّذِي يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ مِنْ ظَاهِرِ اللَّفْظَةِ أَنَّهَا تَعْنِي الْقِدَمَ فِي الِاسْتِعْمَالِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ. فَهَلْ وَرَدَتْ "العَشْرِينَاتِ" وَأَصْرَابُهَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ قَدِيمًا؟ هَلْ جَاءَتْ فِي شِعْرٍ أَوْ نَثْرٍ مِنْ عَصْرِ الْاِحْتِجَاجِ لِللُّغَوِيِّ؟ إِنْ كَانَتْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْعَرَاقَةِ فَأَوْلَى أَنْ نَقُولَ: إِنَّهَا "عَرِيقَةٌ فِي الصَّوَابِ! وَإِنْ لَمْ تَكُنْ قَدْ تَحَدَّرَتْ إِلَيْنَا مِنْ تِلْكَ الْعَصْرِ، فَفِي أَيِّ عَصْرٍ بَدَأَ اسْتِعْمَالُهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ لَمْ تَجْرُ فِي الِاسْتِعْمَالِ إِلَّا فِي الْمَائَةِ الْأَخِيرَةِ أَوْ قَبْلِهَا بِقَلِيلٍ، فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَقُولَ عَنْهَا إِنَّهَا "عَرِيقَةٌ"، لَا فِي خَطَأٍ وَلَا فِي صَوَابٍ.

وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْعَرَاقَةِ فِي الْخَطَأِ أَنَّهَا مَخَالِفَةٌ لَطَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي بِنَاءِ الْكَلِمَةِ وَفِي جَمْعِهَا، وَلَيْسَ فِي اسْتِعْمَالِ هَذَا الْجَمْعِ بَعِينُهُ قَدِيمًا، فَذَلِكَ يَقُودُنَا إِلَى مَسَالِكِ أُخْرَى مِنَ الْحَدِيثِ.

فَالْعَشْرِينَاتِ وَالثَّلَاثِينَاتِ وَالْأَرْبَعِينَاتِ لَيْسَتْ بِالضَّرُورَةِ "جَمُوعاً لِعَشْرِينَةٍ وَثَلَاثِينَةٍ وَأَرْبَعِينَةٍ" الَّتِي هِيَ لَيْسَتْ "فِي" مِثْنِ اللُّغَةِ، إِذْ كَانَتْ لَا مَعْنَى لَهَا.

وَالْجَمْعُ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْأَلْفِ وَالتَّاءِ، وَالَّذِي يُسَمُّونَهُ جَمْعَ مُؤَنَّثٍ سَالِمًا، لَيْسَ دَائِمًا جَمْعًا لِمُؤَنَّثٍ، إِذْ كَثِيرًا مَا جُمِعَتْ عَلَيْهِ أَلْفَاظٌ لِمَذْكَرٍ غَيْرِ عَاقِلٍ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ جَمْعٌ تَكْسِيرٍ؛ فَأَلْفَاظٌ مِثْلُ: حَمَّامٍ وَخَزَّانٍ، وَسَجَلٍ، وَقَرَارٍ، وَمُسَوِّغٍ، تُجْمَعُ عَلَى: حَمَّامَاتٍ، وَخَزَّانَاتٍ، وَسَجَلَاتٍ، وَقَرَارَاتٍ وَمُسَوِّغَاتٍ؛ وَكُلُّهَا فِي مَفْرَدِهَا تَدَلُّ عَلَى مَذْكَرٍ غَيْرِ عَاقِلٍ. بَلْ اسْتَعْمَلُوهُ أَيْضًا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ لَجَمْعِ الْجَمْعِ،

للمذكر العاقل وغير العاقل؛ في العربية، رجالٌ ورجالات، وجمالٌ وجمالات، وبيوتٌ وبيوتات، وبيوعٌ وبيوعات، وأهرامٌ وأهرمات. ومفردها مذكّر.

ثم إذا كتّا قد حكّما بأن "العشرينية والثلاثينية ليست في متن اللغة، فإننا كذلك لا بُدَّ حاكمون بأن "العشرينية والثلاثينية والأربعينية" ليست كذلك في متن اللغة على وجه اليقين، ولم يَجْرِ بها لسانُ أحدٍ من العرب في القديم. ونحن نَعْلَمُ أن مَجْمَعنا في القاهرة قد بَحَثَ هذه الألفاظ وجموعها، وذَهَبَ إلى ما ذهب إليه الأستاذ الجليل، وعدَّ "العشرينات" وأضرابها خطأ، و"العشرينيات" وأضرابها هي الصواب⁽¹⁾.

ثم إن هذه "الياء" المُفَحَّمة التي قيل إنها للنسبة، مشكلة في التَصَوُّر والفهم معاً: فما أظنُّ أحداً مِمَّنْ يَسْتَعْمَلُ هذه الجموع يَصْدُرُ عن تَصَوُّرِ النسبة إلى مفرداتها؛ وما أظنُّ أحداً ممن يسمعها أو يقرأها يستقرُّ في فهمه معنى هذه النسبة، وإنما يريد القائل أن يدلَّ دلالة عامّة على حقبة زمنية تمتدُّ عشر سنوات، تبدأ بعدد في صورة الجمع، وليس في حقيقته جمعاً، وتتسلسل بعده تسع سنوات تالية، بَوَضْعِ عَدَدٍ قَبْلَهُ بَيْنَهُمَا واو العطف. هذه الدلالة العامة على حقبة زمنية معيّنة هي التي يقصدها القائل حين يريد أن يتجنَّبَ تحديد سنة بعينها، وهي التي يَفْهَمُها السامع، ولا يدور في خَلْدِ أحدٍ منهما أن ينسب إلى شيء.

وإذا كان لا بُدَّ من استعمال أحد هذين الجمعين، فإنَّ تَرْكَ الياء أولى، واستعمال العشرينات والثلاثينات والأربعينات، أقرب إلى ذوق العربية وأدخل في أساليبها، وهو ما شاع استعماله واستساغه العرف.

(1) في الجلسة التاسعة من مؤتمر المجمع في الدورة التاسعة والثلاثين، وفي الجلسة السادسة والعشرين من المجلس في الدورة نفسها؛ وانظر بحث الأستاذ محمد شوقي أمين، وبحث الأستاذ الشيخ عطية الصوالحي في كتاب "الألفاظ والأساليب" إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1977.

ومع ذلك، فقد اعتسّفنا الطريق وأصبحنا مُنَبِّئين، حين تَرَجَمْنَا ترجمةً حرفيةً ما استعملته اللغات الأجنبية من جموع هذه الألفاظ، ثم دخلنا في تيه من الجدل في تخطئة هذه الترجمات وتصويبها، ولم نَرَجِعْ في كلّ ذلك إلى ما استعمله العرب منذ أقدم عصورهم للدلالة على هذه الألفاظ، متوهّمين أنها من المعاني العصرية المستحدثة التي لم تَرِدْ في كلام العرب، على حين أنهم عَرَفُوهَا وأداروها كثيراً في كلامهم منذ الجاهلية؛ وهي لفظة العقد نفسه - بغير جمع - مقرونة بالالف واللام، وقد تُجَرَّدُ منهما في الشعر بخاصة، إذا دلّت القرينة على المعنى، فقالوا: العشرين، والثلاثين، والأربعين، إلى آخر العقود، بدلاً من العشرينات أو العشرينيات وأضاربهما. وَبِحَسْبِنَا شواهد معدودات نأنس إليها في هذا الحكم وتطمئن إليها نفوسنا:

قال سُحَيْمُ بن وَثِيلِ الرِّيَاحِيّ (جاهلي إسلامي)⁽¹⁾:

وماذا يَدْرِي الشعراءُ مَنِّي وقد جاوَزْتُ رأسَ الأربَعينِ
أخو خمسين، مجتمعاً أشدِّي ونَجَّذني مداورةُ الشؤُونِ

فللأربعين رأسٌ هو حَدُّها الأعلى ولها "ذَنبٌ" هو حَدُّها الأدنى، وهي تتدرّج بينهما. فَسُحَيْمٌ يَذْكَرُ أنه جاوز التاسعة والأربعين من عمره، وهي رأسُ الأربَعين وحَدُّها الأعلى، ثم وَضَحَ ذلك توضيحاً ما بعده من مزيد حين قال: "أخو خمسين".

ويقول دِعْبِلُ الخُزَاعِيّ (عبّاسي)⁽²⁾:

أفريقي مِن مَلامِكِ يا طَعيَنا كفاكِ اللومَ مَرُّ الأربَعينا

(1) البيتان من القصيدة الأولى في الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.

(2) ديوانه: 148، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت 1962م.

وهذا شبيهه بقول سُحَيْمٍ؛ فالأربعون بكلّ سنواتها قد مرّت وانقضت، وصار شاعرنا "أخا خمسين".

وأشهرُ بيت في هذا المضمار قول عوف بن مُحَلَّم الخزاعيّ (عبّاسي)⁽¹⁾:

إِنَّ الثَّمَانِينَ - وَبُلَّغَتْهَا - قَدْ أُخَوِّجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانٍ

ومن عَرَفَ طريقة العرب في البيان أدرك أن الشاعر هنا لا يريد ثمانين سنة على وجه التحديد والتخصيص، لا يتجاوزها، ولكنه أراد العقد بمجموع سنواته، فهو في "الثمانين" بين أدنى سنواتها و"رأسها".

وقد ذكرنا أن هذه العقود قد تُجَرَّد من الألف واللام في الشعر بخاصة إذا دلّت القرينة على ذلك. ومن أطرف ما نَسْتَشْهَدُ به على ذلك، وأَعْدَبِهِ، وَأَنْفَسِهِ، قول المَلَلِيِّ⁽²⁾:

ولقد قالت لِأَتْرَابِ لَهَا كَالْمَهَا يَلْعَبْنَ فِي حَجْرَتِهَا
"حُذْنٌ عَنِّي الظِّلُّ، لا يُفْرَعُنِي" وَمَضَتْ تَسْعَى إِلَى قُبَّتِهَا
بُنْتُ عَشْرٍ لَمْ تُعَانِقْ رَجُلًا صُوِّرَ البَدْرُ عَلَى صَوْرَتِهَا
ولقد قُبِّلْتُ فَاهَا قُبْلَةً كِدْتُ أَلْقَى اللَّهَ مِنْ لَدَّتِهَا

ولا أُحِبُّ لِنَفْسِي ولا لِغَيْرِي أَنْ نَعْتَسِفَ الطَّرِيقَ وَنَقْتَجِمَ الكَلَامَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ، ولكنَّ الجَوَّ يُوْحِي بأن الشاعر لم يقصد إلى تحديد سنِّ العاشرة، وإن كان ذلك قد جاز، ولا يزال جائزاً على نُدرَة نادرة، وإنما أراد هذه السنَّ التي تزدهر بين العاشرة

(1) ترجمته في فوات الوفيات، رقم: 340، والبيت من شواهد النحو في إعراب الجمل.

(2) من أبيات اطلعت عليها في مخطوطة كتاب نوادر الهجري، في مكتبة أستاذنا محمود محمد شاكر.

والتاسعة عشرة، والتي يُطلقون على من كان فيها من الفتيات والفتيان بالإنجليزية "تِينُ إيجرز"، ونحار في اختيار كلمة عربية مقابلة لها.

-5-

وبعد،

فمن أراد طريقة العرب وما ساروا عليه في كلامهم، فأمامه هذا الشعر المَبِين، وليُقَلَّ: "حَدَّثَ ذلك في العشرين أو الثلاثين أو الأربعين من هذه المئة، أو من هذا القرن"، ولا يخافَنَّ اللَّبْس؛ فنحن لا نقول: حَدَّثَ ذلك في العشرين من هذا القرن، ونقصدُ سنة 1920، وإنما نُحَدِّدُها ونقول: حدث ذلك في سنة عشرين، وليس في العشرين.

ومن أرادَ المخالفة عن استعمالهم الذي أَلْفُوهُ، وأرادَ أن يُحَدِّثَ كلاماً جديداً، فلا بأس عليه أن يجمع لفظ العقد فيقول: العشرينات والثلاثينات. وقد وَرَدَ في كلام العرب تنثية العقد:

"قال الأَخْفَش: أخبرني المَبْرَد قال: أنشدني سليمان بن عبدالله بن طاهر لنفسه: "وقد مَضَّتْ لي عشرونان ثنتان". فقلت له: أيُّها الأمير، هذا لَحْنٌ لأن إعراباً لا يَدْخُلُ على إعراب"⁽¹⁾.

وإنكارُ المَبْرَد لا ينصرف إلى تنثية العقد، وإنما انصرف إلى وجود إعرابين: فالواو والنون للرفع في جمع المذكر السالم، والألف والنون للرفع في المثني. ولو قال: لي عشرينان ثنتان، ما أنكر المَبْرَد شيئاً.

وإذا جازت التنثية على هذا الوجه جاز الجمع.

أما ما سوي ذلك، كإضافة ياء النسبة قَبْلَ الجمع، فشيءٌ تنبو عنه الأسماع، وتمجُّه الأذواق، وليس ما يدعو إليه، مَهْمَا يُرَيَّنُه لنا المَزِينون بتخريجاتهم.

(1) المرزباني، الموشح 357، المطبعة السلفية بمصر سنة 1343هـ.